المخلوق

بدء كتابتها في يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر ٢٠١٣

في ظلام الغرفة، سمع ضجيجاً في الخلفية. بدء يحس بمفاصله، يتحامل عليها ليحركها. شعر بأزيز غريب. كانت يداه مكبلتان الى الحائط. القيود ذات سنون تخترق معصميه. الدماء تنزف من ساعديه بغزارة. الألم يعتصر جمجمته. يفتح عينيه وكأنه يحرك الأخشبين. الظلام يعم المكان. صوت أقدام تتسارع أليه. وجد من يشد رأسه ليرفعها الي أعلي. هوت عليه القبضة الحديدة كعصاة من الصوان. أحس بالألم فوق فكة الأيمن. صرخ. سمع قهقهة. رفع رأسه مرة أخرى. أين أنا؟ لماذا؟ لم يستطع التفكير.

تتوقف جميع مراكز المخ العليا ويتبقى فقط المراكز الحيوية للحفاظ على الحياة عندما نتعرض للخطر!

الضربة الأخرى. نفس اليد لو كان ذو ذاكرة. أستمرت الضربات في تتابع زمني متساوي. توقفت لعدة لحظات. ثم عادت أسرع. عقله يتهاوى بين الغيبوبة والألم. يحس بأن عظام وجهه قد تهمشت كالزجاج. لا يصرخ. لماذا؟ لا يعرف. ثواني وبدء هو نفسه يضحك. هل جن؟ ربما. أخذ يقهقه والأخر يمسك رأسه في وضع الاستعداد لقبضة تهوي على الفك.

سمع صرير وكأن باب حجري يفتح. هو لا يتذكر أي شيء. الضوء الساطع يغمر المكان فجأة. شبح بطول يزيد عن ٥ أمتار يقتحم الغرفة. أضواء من الصخور تشتعل لتضيء المكان بحمرة نارية. ترك الجسم الذي أمامه رأسه. لم يتهاوى. فقط نظر الي أعلي.

ذو جسم يبلغ طوله المترين ونصف. ذو رأس مستطيلة. ليس له أذان ترى. أصلع. لون جلده أسمر. ذو أنف صغيرة للغاية في هذا الجسد العملاق. عينان رفيعتان ذو عدسة مشقوقة. وجهه وكأنه مغطى بالحراشيف. أعلى جبهته نقش من دوائر متداخلة وفي وسطها مثلث قمته لأسفل. ذو رقبة طويلة نسبياً. عظام وجنيه تظهر ببوز غريب في وجهه. يصلح لأن يكون واجهه لفيلم رعب أو فيلم خيال علمي عن الكائنات الفضائية. لا يرتدى من الملابس ذو إزار يغطي مكان عورته. ذو جسم عضلي رفيع. همهم بكلمات غير مفهومة. بدت وكأنه يتكلم بلغة يابانية ثخينة. دار للخلف. على ظهره طبعت رموز وطلاسم معقدة. متباينة الألوان. ذو بشرة وكأنها حرشفية سمراء. ذو ذيل بسيط يظهر من تحت إزاره. أدار نفسه مرة أخرى. ثم أنحنى ورفع بأطراف اصابعه الطويلة وجه الشخص المكبل. ثم أعتدل وقال: من أنت؟

لم يتحدث.....ثواني وهوت ضربه على فكه الأيمن؟ هؤلاء الناس فعلاً لا يصبرون على تجميع الكلمات!

- من أنت؟
- دكتور مايكل... مايكل منير!
- من أين يا دكتور؟

إما أنه يحترمني للغاية لمناداتي بلقبي أما أنه يعتقد أن كلمة دكتور هو اسمي الأول. اللعنة على هذه الطرق الرسمية في الإجابات.

- من... مصر. كانت اليد ترتفع لتهوى مرة أخرى لولا توقفها كلمة مصر.
- من أين في مصر؟

هل هذا الشيء يعرف مصر؟ أين أنا أصلاً! وكيف يتحدث العربية؟

- من القاهرة؟
- من أين في القاهرة؟

هو بالتأكيد يريد العنوان بالكامل! لما؟

- ١٧ شارع فيصل.
- لا يوجد مدينة هناك تسمى ١٧. ١٧ هذا رقم وليس أسما لمدينة... لا تحاول التلاعب بي.

هوت القبضة متتالية وكأنها تدق مسماراً في الحائط. غاب عن الوعي. وتمنى لو كان هذا كابوساً سيفيق منه بعد قليل.

أحس بارتجاج شديد. كان ما زال مكبل في الأصفاد وهو واقف. الدماء تسيل من انفه وفمه. عينه اليمنى لا يستطيع فتحها. هل هذا حلم؟ لا. قهقه. يضحك هو بصوت عالي. لم يرفع رأسه. فكل شيء واضح. هو مازال موجود بين تلك الكائنات الغريبة. سمع قهقه مزعجة لها صرير يصم الأذان. سرعان ما انتشرت كالوباء فضحك الجميع. ثم صمت. يسمع صوت أنفاسه. الحشرجة في حلقه. الهواء الساخن الذي لا يستطيع أن يزفره. الرطوبة الخانقة. رائحته العفنة أم رائحة الدماء أم رائحة هذه الأشياء. عقله فقد السيطرة. يحلم، هل هو حلم داخل حلم. لا يرى. الرؤية صعبة، لكن هل هي حقاً؟ إنها هي... مروة. زوجته، تحمل طفلة. إنها مريم طفلته ذات الستة شهور. رعشة انتابت الصورة. يقيء. يفرغ كل ما بمعدته على الأرض الحجرية... ثواني ويظهر رجل عجوز. يلبس تاج مذهب ولباس أبيض ناصع. حوله ضياء شديد... الرعشة ما زالت موجودة. يقئ الفراغ. ينظر لأعلى. أضاءه شديدة تعمي الأبصار. همهمات وأصوات خطوات. الصورة تهتز. صدي صوت في الهواء. صوت كعب عالي على أرض سيراميكية... صوت أنثوي يسأل: هل مات؟... الصوت يسمع بصعوبة... له صدى وطنين. الرائحة غريبة. لا يستطيع أن يرى سوى الضوء الشديد. أغمض عينيه.

أصوات غير مفهومة. اثنان من هذه الكائنات يحملونه. يرتنح بين أيديهم. السلاسل ثقيلة. أجلسوه على ركبتيه. شعر بهم وهم يربطون يده اليسرى في قدمه اليمنى والعكس.

- من أنت؟ نفس الصوت الثخين. كان يجلس هناك علي الكرسي الحجري الذي أخذ شكل البومة بمنظر جانبي.
- مايكل... مايكل منير.
- هذا اسم والدك.

نظر إلى أعلي. هذا الشيء حقاً لا يفهم.

- لا أنا اسمي مايكل... مايكل منير. دكتور هذه وظيفتي.

- هنا لا توجد وظائف. أنا سألت عن اسمك لا وظيفتك.

قبضة أخري. لماذا الجانب الأيمن. إلا يعلم بأنني من شدة التورم أصبحت مخدراً من هذه الناحية. يبتلع شيء. إنه أحد ضروسه. الطعم غريب بتلك الدماء النازفة. يبدو وكأنه يتجرع كبسولة ذو غلاف معدني ثم يبتلعها باستخدام الزيت.

- كان الناس يستخدمون شراب زيت البرافين لعلاج الإمساك المزمن!
- طعم بعض الأدوية يوصف بأنه معدني مثل الميترونيدازول

- اسمك مايكل مايكل منير.

- لا، مايكل منير فقط. والدي يسمى منير.

- هل هذه مزحة. هنا لا وقت للمزاح.

هل تعرف الشعور عندما تعرف بانك سوف تضرب. مثلاً في مشاجرة. إنك في الحال توجه نفسك بعيداً عن الضربة. لكن هذا للعامة. اما للمحترفين – البلطجية – فهم يقتربون من المهاجم. مثل لاعبي المصارعة الحرة حتى يقل عزم القوة فلا تؤثر بشدة وتصبح أنت المتحكم في قوة الخصم. من مبادئ الجوجيتسوا. من اين تعلمت ذلك؟ لا أدري!

أدرت وجهي ناحية اليمين. ارتطمت القبضة. كانت شديدة لكن هل بدا وكأنه توقف للحظات قبل أن يكمل اللكمة. لا أنني أهذي بالتأكيد. رفعت رأسي لأعلى. سؤال ما هذه الأشياء؟ لا تفكر، فقط حافظ على حياتك. هذه هي الأهمية الأولى. السؤال هو لما أحافظ على حياة لا اعرف ما كنهها سوى انني اتعذب فيها؟ ربما هي غريزة البقاء.

- في أغلب حالات الانتحار (أكثر من ٧٠%). تحاول الضحية إنقاذ نفسها وطلب الاستغاثة!

سؤال آخر راودني. ذا الرجل أو الشيء يتكلم بنبرة ثابتة ووجه صلب صدئ بلا تعبيرات. فكيف يفهم الآخر أنني أخطئت في الإجابة من دون تنبيه. هل هناك طريقة أتصال لا أستطيع فهمها. ربما. ربما كنت أعمى. ما ألعن شيء تعتقد أنه يمكن أن يحدث الأن. لا يوجد ألعن. ربما.

- هناك قول مأثور: أنتظر، فالأسوأ قادم!

صداع نصفي يشق رأسي نصفين. لكمات هذا الهمجي بجوار هذا الألم مثل شكة إبرة السرنجة مقابل أن يتم إزالة أحشائك بدون تخدير.

هل هذه طرق أقدامه. حفيف يسمع من بعيد. الهواء يزمجر. الضوء الأحمر القاني يغمر المكان. من أنت؟ هذا الرجل فعلاً لا يعرف اللغة العربية جيداً. ظلام تام. أترك عقلي لكي ينسال مع التيار. إضاءة بيضاء ناصعة شديدة. الرؤية مهتزة ومشوشة وكأنها مليئة بالماء. تنظر الي وقد عقدت شعرها الأحمر خلف رأسها كذيل حصان. صوت الخطوات يضرب بقوة. طرق على السيراميك. صدى الصوت يصم الأذان. لا أستطيع الحراك. هناك شيء ما في حلقي. أنا أحس به. ألم. اختناق. غصة. أحس بأنني على وشك الانفجار. كشاف موجه الى عيني. الإضاءة أعمت عيني اليسرى كفلاش الكاميرا. بقع سمراء. أختنق.

من الأفضل أن تموت في هدوء وسكينة. المقاومة سوف تزيد من الألم والمعاناة.

هل هذه هي النهاية. ربما.

- مايكل منير.

- من أين؟ هذا الشيء مصاب بمرض الزهايمر. أو بداء النسيان.

الزهايمر: هو مرض يصيب كبار السن (فوق ٦٠ سنة) يسبب دمار لخلايا المخ. مما يؤدي الي فقدان للذاكرة الحديثة وعدم القدرة على تكوين ذكريات جديدة – القدرة على التعلم. ثم يفقد المريض قدرته على التحكم في الأعمال المعقدة أو حل المشكلات. حتى يصل الى طور الخرف النهائي وفيه يصبح المريض معتمدا اعتماداً كلياً على من يساعده في أداء وظائفه الأساسية كالأكل والشرب وقضاء الحاجة.

- من مصر.

- قلت لي ذلك قبلاً. ظننت أنك تكذب.

هؤلاء القوم يعرفون الكذب. إذا فهم كائنات ذكية بلا شك.

الكذب: هو أحد وظائف المخ العليا. وفيه يتم توليد الأفكار المرتبطة ببعضها من الخيال ووضعها في سياق منطقي يعتمد على الحقائق المخزنة في الذاكرة. وفيه يعتمد المخ على

نصفيه الايمن والايسر بالكامل للوصول الي هذا الهدف. يبدئ البشر في تطوير الكذب من سن اربعة سنوات. وهذا لكي يعرف الطفل مدى قدرته على اختراع حكايات يمكن تصديقها!

- من أين في مصر؟

- من القاهرة.

- تلك التي بها الأهرامات؟

- نعم. هي.

- ذلك المكان اندثر منذ زمن بعيد.

لا استغراب. فيبدو ان كل شيء تدمر في هذا الكون. لكن ما هذا الكون؟

صوت الصراخ وصدى الصوت حولي يعود من جديد. الصوت أقرب الى صوت أنثي تنادي علي مع بكاء لطفلة. الصداع النصفي. لا أستطيع التركيز. يداي ما زالت مكبلتان الى قدمي. بالكاد أستطيع رفع وجهي مع تقوس يدق فقرات ظهري.

- من أنت؟

ها هو عاد الى تكرر أسئلته السقيمة. يبدو أن من علم هذا المخلوق العربية هو شيء فاشل. علمه بضع كلمات وكلها أسئلة. ماذا؟ هل اندثرت القاهرة؟ ومن زمن بعيد؟ وما بعد هذا الزمن؟

- مايكل منير.

- لا، هذه ليست الإجابة. اقصد من أنت؟

هذا الرجل فعلاً يجيد العربية. لقد أخطأت في الحكم عليه. هو يريد ان يسأل ماذا أنت؟ ذلك السؤال السقيم الذي تبادر الى ذهني مئات المرات منذ أن أفقت في هذا المكان مع تلك المخلوقات. سؤال يعبر عن كل الأسئلة. ماهي وظيفتك؟ من أين أنت؟ ما هو طبيعة عملك؟ لماذا جئت الى هنا؟ وكيف جئت؟ ومتي؟ وأين؟ وما هي صفاتك؟ أسئلة معقدة. تستطيع أن تجيب عليها لو كنت في وضع عادي لكني حقيقة...

- لا أتذكر.

- ما الذي لا تتذكره؟
- كل شيء.
- لكنك تتذكر اسمك ووظيفتك.
- نعم، قلت لك انني طبيب.
- طبيب؟
- نعم؟
- وماذا يفعل الطبيب؟
- أنه يعالج المرضي!
- لا يوجد مرضى. تبدو وكأنك من الأزمنة السحيقة. الأزمنة التي كان يوجد بها فانيين.

لا بد أنني أهذي.

- قلت لي أن وظيفتك دكتور.
- نعم. وهذا يعني طبيب. لكن بلغة أكثر شيوعاً.
- هل تخبرني أكثر عن نفسك؟ حاول أن تتذكر.

الألم. لا ليس الأن. هل هذا ما يحدث. ظلام تام. أكاد أسمع الصوت.

برودة شديدة. قشعريرة.

استيقظت. كنت ما زلت مكبلاً. المخلوق الذي أمامي قد وقف الآن وترك الكرسي الحجري. يبتعد عني بعدة أمتار. كائن ما يرفع رأسي. رائحة عفنة كتلك التي تشمها خلف أكشاك بيع الدجاج أو في سوق الدواجن. أشعر بسائل ذو ملمس كالزيت بارد كالثلج فوق رأسي ووجهي. شيء ما دميم الوجه يتحرك أمامي. تحرك لخطوات قليلة نحو المخلوق الذي يبدو كقائدهم. ثم تحرك في الاتجاه المعاكس واختفى في الظلام.

- ماذا تتذكر الآن؟
- لقائنا.
- وماذا غير ذلك؟ هل تتذكر أي شيء عن وظيفتك؟
- قلت لك أنني طبيب – لكن ما هو التخصص، نعم أنه هو. طبيب الطوارئ والتحليل النفسي.
- هل تتذكر متى ولدت؟
- في عام.... ٢٠١٧.
- أنت بالتأكيد من الأزمان الفانية.
- لما؟
- هل تريد الأجوبة.
- نعم.
- هل تعرف أين أنت؟
- لا.
- هذا ما اعتقدت. أنت على الأرض.

أنا متأكد من ذلك. فلست أذكر أنني تم اختطافي ببعض الكائنات الفضائية ولو أن هذه المخلوقات أشبه بالكائنات الفضائية. إلا أنني أشعر بثقل الجاذبية الأرضية. شكراً لك يا إسحاق.

إسحاق هو الاسم الأول لإسحاق نيوتن، مكتشف قانون الجاذبية الشهير (١٦٤٣م – ١٧٢٧م)

- نحن لم نعد نعد الأعوام. فالسنوات هنا بلا أرقام. فقط أسماء. لكل عام هنا أسم. هنا لا يحب الناس معرفة القديم والحديث. الأمور تغيرت منذ انتهاء الفانيون. توقفنا عن الحساب. ذلك الشيء الذي لم يعد يشغل بالنا. نطلق الأسماء على الأعوام لنميزها. هناك

عام الغيوم عندما غطت الغيوم السماء لقرابة نصف عام. وهناك عام الإعصار وعام النجم الساطع. أقدمنا هو من عاش منذ عام البدء، وهم قليلون. قلت لي أن أسمك مايكل.

- نعم.

- هذا ليس سؤال. هنا لا يوجد أسماء أو القاب. يسمى الشخص بصفه مميزة له. فهناك "النجار" وهناك "الجميل" وهناك "القوي" وهناك "الرقيقة" –هم لديهم إناث إذاً-وهناك "المخادع" وهناك "اللحام". الجالس الى جوارك على اليمين يسمونه "الطارق" –هذا مؤكد فيبدو أنه يطرق بقبضته على كل شيء يستطيع إيجاده، خاصة وجهي-أما الذي على يسارك فهو "الهائم" وهو الذي وجدك وأتى بك الى هنا. أما أنا فيطلقون علي أسم "الرب".

سرت قشعريرة في جسده. بدء المكان يهتز. حاول النطق، لكن لا فائدة. تلعثم. الصوت لا يحاول الخروج من فمه. الهواء مكتوم في حنجرته اللعينة. صدره وكأنه مشقوق الي نصفين. صورة غير واضحة. وجه سيدة في العقد الثالث من العمر تنظر اليه بحدة وتنادي "مايكل"، يشعر بالخجل. لما. هذا ليس أوانه؟ المهم هو هذا الشهيق الذي لا يتبعه الزفير. حرارة كفيح جهنم يصطلي به جسده. يشعر وكأنه يقلى في زيت مغلي من الزيوت الشحمية. ها هو الظلام.

يقيء على الأرض الصخرية. يرفع رأسه لأعلى ذلك الوجه البغيض وقبضته السمراء تلوح في الهواء. لكن توقفت.

- مايكل. هل تيقظت. إنك في محنة ونحن نحاول أن نساعدك!

كان الصوت يشبه صوت المذياع أو صوت غليظ من آلة تسجيل عتيقة (جراما فون). الدماء تنحدر بشدة من أذني اليمنى وطنين شديد كدوامة في إعصار بحري. هم فعلاً يحاولون مساعدتي. بإنهاء ما تبقي لي من ساعات في هذا المكان.

ثواني وأخرج أحدهم ما يشبه القربة الشفافة. ثم أعطاه لذلك الذي على يميني فترك رأسي ثم ضغط عليها في حركة عاصرة بقبضته فانفجر ما فيها. سائل اشبه بالماء الأزرق غطي رأسي بالكامل. رائحة عفنة تبدو وكأنها مزيج من رائحة البول –النشادر-المقيتة ورائحة الكحول. ثواني وغمر هذا السائل كل جسدي. أحساس غريب. شعرت بخدر في كل جسدي مع قشعريرة صغيرة. ثم بحرارة تخرج من الجروح في وجنتي وعظام وجهي. أحساس غريب بالنشوة أو السعادة. أنفاسي بدئت تستريح. المكان أصبح غير ما كان. الآن أستطيع التنفس. الغصة التي في حلقي ذهبت.

أكمل حديثه. صوته أصبح أشبه بصوت مذيع على تلفاز من فئة الأبيض والأسود. هل رأيت هذا التلفاز من قبل. نعم في بعض الأفلام القديمة.

- يسمونني "الرب". هم من يختارون الأسماء. كان اسمي في الأصل "الحكم" ثم أصبحت "الرب". بعضهم يعبدونني إذا كان هذا هو ما تسأله. لا أعرف كيف ولكنهم أخبروني أن بعضهم يعبدونني. إنني سيد هذا البلد. هذا البلد يطلقون عليه اسم من الأسماء الفانية "القاهرة" هذا لأنه يقهر الغزاة. لا، ليست في مصر. مصر الآن هي مكان مفزع مهجور يسكنه أبناء الغزاة. يختبئون في منازل القدامى وهناك عند سفح جبالهم الصناعية الخمسة يقع عرش كبير الغزاة. الآن هل تعرف كيف وصلت الى هنا؟

- لا أدري. لا أتذكر بالفعل.

- ستتذكر. – همهمات غريبة بعضها أشبه بنطق العبرية أو التركية للرجل الذي أتي بالقربة الزرقاء-لقد وجدناك في سهل الثلوج في الليلة السابقة. لقد وجدك "الهائم" عندما كان يبحث عن بعض الغذاء من النباتات. أعتقد أنك مسخ لكنني عرفتك على الفور. أنت من الفانيون. هؤلاء الذين تتحدث عنهم كتب القدامى. كنت كما أنت عاري تماماً بلا غطاء. ظللت هنا حتى اندلعت الشمس وحرقت صخور جبل الصوان بحرارتها. فتبخر الثلج الذي كان يحيط بجلدك. وبدئت عيناك تتحرك. هنا استدعيت "الطارق". فأنت كنت من البشر. لا مسخ من مسوخ الفانيون.

- هل معنى هذا أنه يوجد بشر؟

- لا، ليس في نواحي قريبة من هنا. هناك أساطير تتحدث. لكننا نعلم أنهم كانوا أول الفانيين.

ارتعدت فرائسه للحظات. تحرك هذا الكائن وبدء في الاقتراب منه. شعر بضربات قلبه تنبض بعنف وكأنها دقات مطرقة فوق أحجار صخرية من الفولاذ. لا يعرف هل هذا هو الخوف؟ والخوف من ماذا؟ هل الخوف من الموت؟ لا، فالأفضل أن يموت في هذا العالم الأشبه بالجحيم. بل إن هذا العالم هو الجحيم بعينه. أنفاسه بدئت تتقاطع. شهيق بلا زفير. ألم شديد برأسه. هل هذه نوبة صداع نصفي؟ هل هذه هي حرارة الشمس اللافحة ام أنها؟ يبدو وكأنها حرارة جسده الذي يشعر به يغلي وكأنه بركان من الحمم المكبوتة على وشك الانفجار.

رائحة غريبة كرائحة السمك المشوي على الفحم. أضاءه شديدة. الأصوات بدت وكأنها تنطلق في صخب. صوت أمرأه: ها قد عاد مرة ثانية؟ رائحة جديدة. رائحة المشمش. هل للمشمش رائحة؟ ربما. تقترب بوجهها منه. ترتدي بالطوا أبيض وكمامة بيضاء ونظارة بلا أطر. ابتعدت عندما أتى وجه رجل آخر ذو لحية صغيرة في مقدمة ذقنه. يرتدي ملابس سمراء مخططة مع بالطوا أبيض فوقه علامة ثعبان وعصا. على كتفه تظهر علامة الصليب. يرتدي غطاء للشعر ازرق وكمامة.

- كم مر على وفاته؟

- ٣٨ دقيقة!

- نادي دكتور مروان. يا مس، عايزه في غرفة العزل. STAT (حالاً)

بدئت أشعر بخدر في جميع أجزاء جسدي وألم رهيب في رأسي. حرارة شديدة مع ثلوج تحيط شفتاي. حاول إغلاق عيني لكنني شعرت وكأنني أطالب بتحريك الجبال. لم أستطع ولم يستجيبا. درت بعيني. وجدت أمرأه ذات قوام كثيف تتحرك. ترتدي بالطوا لبنى اللون وبلا غطاء لشعرها. دارت خلفي. نظرت للجهة المقابلة. لم أرى. سواد يحجب الرؤية (المجال البصري) من خلف السواد يظهر بطرف عيني ظهر شخصين يتكلمان في ملابس بيضاء. هل هذا هو عالمي؟ ربما.

الضوء في السقف يتحرك. أسمع أزيز الهواء. طنين يدق على الحائط. مالت نحوي ذات الرداء اللبني فظهر حاجبيها المعقودين. نظرت لي باستغراب وذهبت. لا أشعر بأنفاسي فقط برودة تحيط بجسدي الذي يبدو وكأنه وضع في ثلاجة.

*****

غرفة بيضـــاء ذات أبواب زجاجية شـــفافة. على أبوابها تظهر علامة الخطر البيولوجي ومثلث التعجب وعبارة "للعاملين فقط". تقف هناك ممرضـــة كثيفة ذات شـعر أسـمر عقدته برباط ملون خلف رأسها وفوقه يوجد غطاء للشعر أزرق اللون. ترتدي ملابس قماشية ذات لون لبنى فاتح من قطعتين. السفلي هي بنطال والعليا هي قميص ذو جيب على شكل ٧ يظهر مقدمة صدرها الأسمر البارز. بجواره يوجد دبوس يحمل شـعار ثعبان وعصـا. بجوارها سـرير يحاط بحائطين زجاجين عليهما تقرير عن العلامات الحيوية التي كانت جميعها على خط الصـــفر إلا بعض الترددات والاهتزازات الضعيفة على شاشة EEG رسم كهرباء المخ. هناك طبيبة وطبيب يتحدثان عندما دخل الغرفة رجل يرتدي زي أزرق خفيف ونظارة على عين واحدة. أتجه الطبيبان نحوه. ثم استقرا عندها دار علي يمين السرير.

- كان في غرفة الإنعاش عندما وجدنا ذلك! قالت الطبيبة

- كم من الوقت استمرت عملية الإنعاش؟

- نحو ٢٠ دقيقة بلا فائدة. لم نحصل على استجابة ولو حتى Pulseless Electrical activity نشاط كهربي بلا انقباض. كما أنه يظهر من تلك الحادثة أنه توفى تماما هذا قبل أن يحدث هذا النشـاط الغير مسـبوق. كنا قد أخبرنا زوجته وأخذنا منها الأمضـاء للتوثيق عل حفظه في الثلاجة حتى الدفن.

كان على السرير شخص قد تفحم جسده بالكامل إلا من نصف رأسه الأيمن وساعده الأيمن واعلى نصف صدره الأيمن. وكأن حريقاً اندلعت فيها وتركت هذه الأجزاء التي بدت غير مصابة.

- هل كان من المتبرعين؟

- لا، حتى وإن كان فلا مجال لذلك مع هذه الإصابات.

- كم مر قبل أن تلاحظا النشاط؟

- ٢٨ دقيقة كاملة من عدم وجود أي نشاط. لا شيء حتى لاحظته دكتورة ريهام.

- أظهرهما لي يا أشرف.

على أحد الحوائط ضغط الطبيب بعض شاشات التلامس فظهر مسجل لرسومات موجية ذات ألوان متباينة ثم أخذ يبحث في الشريط الطويل على الحائط الزجاجي حتى ظهرت نوبة من الموجات المرتفعة بجوار بعضها على أحد تلك الأشرطة الموجية. اقترب دكتور مروان منها. ثم قال:

- هذا لا شيء –بدا القلق على وجه الطبيبين-أنها مجرد أشرات عصبية لموت خلايا المخ نتيجة نقص الأكسجين. هذا النمط مشهور جداً وتم دراسته لسنوات.

- وماذا عن حركة واستجابة بؤبؤ العين الا يمكن أن يكون؟ قاطعته دكتورة ريهام

- هذا شيء يظهر كثيراً خاصة في مثل هذه الحالات والتي يكون فيها الموت أليماً وسريعاً نتيجة زيادة إفراز الموصلات العصبية الكيميائية. كما أن بعض هذه الاستجابات تحدث في العقد العصبية ولا تصل أشاراتها الي المخ. لا، ليست هذه الحالة هي حالة locked in Syndrome الانغلاق أو حالات موت جزع المخ. هذه الحالات يمكنك رؤيتها في المسلسلات الطبية مثل هاوس الطبيب. وحالات حرجة وغيرها أما في الواقع فنادراً ما نراه. كنت أتوقع الكثير عندما طلبني أثنين من الأطباء أحدهم طبيب عناية مركزة والأخرى طبيبة طوارئ على درجة الدكتوراه! الا تستطيعان تشخيص الموت.

- ما هو الموت؟

قاطعه صوت رخيم من خلف الأبواب الزجاجية التي تفصل الغرفة الزجاجية عن الخارج. عندما انفتح الباب ليظهر رجل أشيب على كرسي متحرك يميل رأسه الى اليسار قليلاً،

يرتدي ملابس زرقاء مخططة بالأبيض. عندما تحرك الكرســـي بعدما فتح الباب الزجاجي صانعاً صوتاً الكترونياً كعلامة تأكيد.

- دكتور خالد! قالها دكتور مروان.

- أنتم لم تجيبوا على السؤال.

- الموت هو خروج الر....

- لا، أقصد التعريف الفسيولوجي الذي درسته. لا ذلك التعريف.

- الموت هو عدم قدرة الجسد على الحفاظ على الحياة.

Inability of the body to sustain life.

- وكيف أعرف أن هذا الجسد لا يمكنه الحفاظ على الحياة... يا دكتورة؟

انعقد لسانها وتمنت لو أنها لم تستجيب.

أقترب من مؤخرة السرير بكرسيه المتحرك ثم رفع رأسه لأعلي في سقف الغرفة ثم قال:

- نبذة تاريخية عن الحياة والموت:

عام ١٩٣٠ تمكن عالم روسي يدعي "سيرجي بروخينينكو Sergei Brukhonenko من إعادة أحياء كلب بعد أن توقف قلبه ورئتيه عن العمل لمدة ١٠ دقائق

عام ١٩٣٥ أول عملية أعادة أحياء لحيوان وكان كلب روسي تم قطع رقبته ثم توصيل شـرايين المخ بجهاز أشـبه بجهاز القلب الصـناعي وعاش الرأس الحيواني وأسـتجاب للحياة لمدة ٤ أيام قبل أن يموت من الجوع نتيجة نقص الجلوكوز "الغذاء للمخ" أستمر توقف الدم عن الجزء المقطوع لمدة ٥٥ دقيقة!

عام ١٩٤٢ تم قطع رأس كلب ووضعه على جسم كلب آخر من فصيلة أخرى تم فصل رأســه وأســتمر الكلب حياً برأس الكلب الآخر لمدة ثلاثة أيام قبل رفض الجســم للمخ وأصابته بالتهاب سحائي والتهاب في القشرة المخية مما أدي الى وفاة الكلب. كان ذلك في ألمانيا

في اليابان عام ١٩٧٤ تم زرع رأس فأر على جسد فأر آخر برأسه الأصلية. عاش الفأر ذو الرأسين لمدة شهرين متواصلين قبل أن يموت!

في عام ١٩٨٩ في أمريكا تمت أول عملية موثقة لتبادل الأدمغة بين القرود من فصيلة قريبة للشمبانزي حيث تم أعادة التجربة الألمانية حيث وضع رأس قرد فوق جسد لقرد ولكن القردين كانا أخين. أي أقارب من الأب والأم. وعاش القرد المهجن لمدة أربعة أيام تم اختبار فيها ذكاءه وذكرياته ليكتشفوا أنها للرأس. مات القرد نتيجة رفض جسمه للمحاليل وأنابيب التغذية.

في عام ١٩٩٣ تم تجميد عشرون فأر باستخدام النيتروجين السائل. وظلوا على تلك الحالة لأسبوعين ثم تم أعادة أحيائهم بالتدفئة البطيئة. عاشت الفئران لدقائق قبل أن تموت نتيجة تورم الخلايا بالماء نتيجة ذوبان الثلوج.

في عام ٢٠٠٢ ثم بنجاح أعادة أحياء شخص توقف قلبه عن العمل لساعات نتيجة انهيار ثلجي في فرنسا. استغرقت عملية التدفئة ما يقرب من ثلاث ساعات وبذلك يصبح الوقت الفعلي لتوقف القلب حوالي أربعة ساعات كاملة.

في عام ٢٠١٧ تم إيقاف قلب أحد الأشخاص صناعياً لمدة أربعة دقائق ثم تجميد الدم باستخدام تكنولوجيا التجميد الآني. ثم تم إعادة أحياءه بلا أي أضرار تذكر.

في عام ٢٠٢٨ حادثة شهيرة. شخص يسقط على رصيف المترو فيشقه المترو الى نصفين ليحطم بذلك عظمة الحرقفة لديه. نزيف شديد لكن وصل المسعف قبل أن يموت بلحظات. تم تجميد الضحية حالاً. ووصلت الى مستشفى التقدمي في الأبحاث المستقبلية. عندها تم أحياءه بعد أعادة توصيله على الجزء المبتور. عملية استغرقت ثماني وعشرون ساعة وأكثر من خمسون جراحاً.

الآن ما هو تعريف الموت؟ وما هو تعريف الحياة؟

- لكن يا دكتور خالد، كل تلك الحالات كانت حالات خاصة. هنا نحن نتكلم عن حالة وفاة عادية! لا يوجد تجميد آني أو أي استثناءات.

أقترب من منتصف مؤخرة السرير. ثم رفع لوحاً الكترونيا وأخد يقلب فيه ليعرض عليه التقارير الكاملة للحالة. ثم قال:

- بل هي حالة فريدة من نوعها يا دكتور مروان. على حسب تلك التقارير. ثم من قال بأن تلك – وضغط على اللوح الإلكتروني فأنتجت الحائط شاشة لترددات رسم المخ في

منطقة معينة – هي الموجات التي تظهر بعد الوفاة. كنت أظنك أكثر ذكاء وخبرة من ذلك يا استشاري المخ والأعصاب.

- إنها... (قالتها الطبيبة)

- نعم، هذه الموجات هي موجات تشاهد في اضطرابات الصداع النصفي الشهير. أول مرة استغرقت بضعة ثواني. لكن في المرة الثانية ظلت مستمرة لمدة تقارب الأربعة دقائق. وأنا لم أسمع عن ميت يصاب بالصداع النصفي.

- ولكن يا دكتور خالد.

- أعرض لي رسم المخ الآني له! قالها بنبرة حازمة.

ضغط دكتور أشرف علي بضعة رسومات على الحائط المجاور للأجهزة المعقدة المتصلة بالجسد المتفحم. فبدئت تتحرك الشاشة الخلفية فوق رأس السرير علي شكل موجات متباينة الشدة والطول.

- كبرها للضعف. – ضغط على الشاشة على شكل عدسة فتضخمت الموجات-

مرة أخري. ~~~~~~~~~

مرة أخرى.

مرة أخرى.

الآن ماذا ترون؟

قال دكتور مروان مذهولاً وبنبرة خافته كالخجلان من الفضيحة:

- موجات ثبيتا وجاما. أنه في حاله حلم مصطنع وكأنه منوم مغناطيسياً. هذا إذا كان....

- ماهي مقدار الترابط بين الموجات؟

- ٧٣%

- وهل تعرف أقل مقدار للترابط بين الموجات للقول بأنه ميت دماغياً؟

- ٦٤%

- الآن، كل هذا هراء. يا أشرف. أحقنه بالمادة CJ315-F.

- ماذا؟

- في الحال STAT.

*****

شعرت بصداع شديد. آلام عنيفة. ضوء خافت يترقرق في الأفق. نفق مظلم. سراب. لحظات وعاد الصوت الخشن مرة أخرى:

- مايكل!

تردد الصوت في أذني. أمرأة حسناء وبجوارها طفلة صغيرة. صدى صوت عنيف. لم أكن أعرف أن صوتي يمكن أن يصنع كل هذا الضجيج.

- مايكل!

نظرت الى أعلى. نفس المخلوق. يحمل في يده عصـــاه ذات خطوط زرقاء لامعة وكأنها لأحجار كريمة.

- لقد أستمر ذلك النوم لمدة ساعة تقريباً. لقد قاربت على التوقف عن الحياة.

- ....

- نحن نريد مساعدتك. ولكن عليك أن تساعد نفسك أولاً.

ضربة قاصمة من "الطارق" على الفك الأيمن الذي زاد الألم فيه فجأة.

- .....

لم يرد، لا يعلم كيف يرد على كل تلك اللكمات. الألم يحرق أجزاء جســـده من جديد. نور ساطع شديد. هناك فجوة في سقف الصخور. الشمس تلمع منها بشدة. السائل الأزرق يترك أثراً على جلده باللون البنفسجي. ثم يختفي. شعر بنشوة. شعور غريب.

- كيف؟ كيف أساعد نفسي؟ إذا كنتم تكبلونني؟

- عليك أن تقف، فقط. وسوف ترى!

تحرك "الطارق" و"الهائم" بعيداً. الشمس تلمع بلون ذهبي فوق الصخور الزرقاء. قطرات عرق لجبينه. سخونة في يديه، بل جميع مفاصله. المخلوق الذي أتى بالسائل الأزرق يختفي في الظلام. أقترب منه "الحكم" ونظر له بعينيه المشقوقتين كعين الثعبان. ثم قال:

- عليك أن تحاول. ثم ستعلم.

دار للوراء. الأشكال والرسوم على ظهره بدئت وكأنها تعيد صياغة نفسها من جديد. الذيل يختفي لأعلى. الضوء. لا..... بدء يتحامل على نفسه. وجد نفسه خفيفاً. ولكن الصورة التي أمامه تهتز. بين شخص يرتدي بالطوا أبيض يجري نحوه وصورة أمرأة تنحني نحوه بأبتسامة. شعور بالسعادة. الطمأنينة. الخوف. الألم. ضيق النفس. الحب. صورة "المخلوق" ينحني ليتلقط صخرة على الأرض. قسيس يرتدي ثوباً أبيض لا أسود.

تحامل أكثر. الصور أصبحت أكثر تشويشاً. يشعر بخفة شديدة. لكنه كالمشلول لا يستطيع تحريك ذراعيه. فجأة شعر بنفسه وقد أستقام. الأصفاد فقدت وزنها. لقد وقف. كيف وقد كبلوا يديه في قدميه؟

أنحنى المخلوق بعدما دار نصف دورة ونظر ألي بنظرة باردة.

- الآن، يمكنك أن تقابل "المجيد"

- من؟

- ستعرفه. هو أكثرنا علماً وخبرة. هو من جعلني الحكم. أنه الوحيد القادر على مساعدتك.

- لكن كيف؟

نظر ألى نظرة شاخصة. بدئت الدوائر في أعلى جبهته تتراص. اختفى المثلث الذي يتوسطها. ثم رفع نفسه قائماً وقال.

- لو نظرت الى الحقيقة، لم توجد أصفاد أصلاً. هي كانت مفكوكة منذ البدء. لكنك لم تحاول أن تقهرها.

نبرة الصوت تغيرت. كصوت أب يلقن أبنه حكمة العمر. نظر المخلوق لمن حوله. أتى مخلوقان ضخما الجثة ورفعاني. ثواني وشعرت بثقل شديد. الأضاءة خافتة. أختفت الشمس.

ترانيم الكنيسة. عيد القيامة المجيد. جرس الكنائس. صوت رنة محمول.

نفق مظلم. أستطيع الشعور بهم وهم يحملوني. كان المكان حولي مغطى بالصخور والثلوج. بدا وكأننا نصعد الجبل. الشمس تظهر بحمرة دموية. القمر أيضاً يظهر في السماء. بلون وردي ذو زرقة خفيفة. نظر الى أحدهم. كان يمسك بقبضته أحد أطراف الخيط الرفيعة. التي صنعت الصندوق الغريب الذي حملوني فيه. الطارق ومعه الهائم يسيران في المقدمة. أما الحكم فقد اختفى عن المشهد. ظهر كهف عميق في الجبل. سرعان ما أنزلوني. اختفى الصندوق القماشي وتحول الى خيوط على الأرض. وجدت "الحكم خلفي" يتقدم الصفوف.

- هنا ستجد أجاباتك.هو طلب مني أن أبعثك أليه.

أختفت الشمس تماما وكذلك القمر ألا أن الظلام بدا وكأنه لن يحدث. حمرة كحمرة الشفق. الأشجار تنير بضوء أخضر ذو مسحة صفراء. النجوم في السماء تتلألأ وكأنها رصت على شجرة الكريسماس (عيد الميلاد المجيد). نظر الى الحكم وقال:

- يسمونه المجيد. يعيش هنا منذ زمن. منعزلاً عن الناس. هو أكثرنا علماً وخبرة. ولد حتى قبل أن يولد الجيل الرابع. ربما كان خائفاً أن نعديه بجهلنا. أو خاف أن يوصف بالمجنون. لكننا دائماً ما نجده عند الحاجة. ربما سيفزعك. لكن لا تفكر فيما تراه. فكر فيما تريده. هو حتماً الوحيد القادر على مساعدتك.

في الكهف العملاق. سمعت صوت دوي الرياح في الصخور. صوت قطرات الماء. إحساس بالبرودة المثلجة. قشعريرة. أنفاسي تطلق ذلك البخار الأبيض. أنا عاري كما ولدتني أمي. كيف سأقهر كل ذلك؟

تحركت في الكهف. الجوء يبدء في الدفء. خلفي يقف "الحكم" وبجواره الشخص الذي كان يحملني. بينما اختفى "الطارق" و"الهائم". بدئت أحس بالمياه تحت قدمي. تحركت. شعرت بتموج المياه. اختفى باب الكهف. الكهف يضي بلون أبيض غريب. شخص ما أو مخلوق ما جالس ويعطيني ظهره. كان ذو شعر كثيف فوق رأسه. طوله يقارب المترين ونصف. عليه خرقات باليه. جسده قرمزي اللون وذو ذيل خفيف. همهم بكلمات. سمعت صوت أنغلاق الباب. صوته كحشرجة مبحوحة لشخص ميت. بدء الماء ينحسر. الضوء يأتي من المكان الواقف فيه. ألتف. أعمى الضوء بصري. لم أتبين ملامحه.

- تقدم.

تحركت خطوة للأمام. رأسي. ألام رهيبة. أمرأة. مريم. مروة. دكتور رشاد. معلمي. أمي. عرسي. صداع.

- من أنت يا مايكل؟
- لا. أعرف. – قلتها بصرخة مدوية-
- لماذا لا تعرف؟
- لا أتذكر.

ضحك. صوت ضحكة كصرير الأسنان عندما تصطك في البرد.